من أعماق رحلة أخيرة .. !!

(١)

القطارُ يعضّ علي الشريط الحديدي، ببطء متهادٍ، وأسماء مدن وقري تنقر علي مسطح زجاج القطار، « مركز طهطا ،و«جزيرة شندويل» و«الحمادية» و «أولاد نصير»..... وقتها، كان النهارُ يُرسلُ بضيائه الأخير، مبدداً حلكة ظلام، راحل، قادم، لا أعرف تحديداً..!!

(٢)

شمس تعلن الرحيل في ليل غلَّفته العتمة، تذكرته، فابتسمت، فعلي مدي عامين، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، جمعتني به صداقة حميمة، جميلة، هو شاعر متألق، شاب، سوهاجي ، يُدعي «علي طه»، يقطن بقرية «أولاد نصير»، صداقته لا تُقدَّر بكنوز الدنيا، دماثة أخلاقه، وطيبته، و رجولته، كنا نتحدث كل ليلة، في شتي الأمور الحياتية، والسياسية، والأدبية، ونتبادل النكت الهزلية أحياناً، كان يفصلنا المئات من الكيلو مترات، وقُدّر لي أن أكون بمأمورية عمل قريب جداً من محل إقامته التي عرفتها كطريق شارعنا من كثرة المحادثات معه، فقلت: « أعمل له مفاجأة.. وأنزل عليه زى القضاء المستعجل..!!»..

ولما وصلت للعنوان تقريباً، كانت الشمسُ تقترب من المغيب، ينتفض النخيل، منتشٍ سعفه في اضطراب، الإسفلتُ مُتهالكاً، والطريق طويلة، قد تبدأ ولا تنتهي، أو ربما انتهت دون بداية محددة.. أما لمبات الأعمدة -التي كانت تحاصر جانبي الطريق- فقد كانت تنزف ضوءاً محمراً باهتاً، متقطعاً، شعرت أن الطريق تلتحفُ بوهج الذكريات المُتدفقة لصديقي« علي طه»، ومن بعيد، وعبر تعريجات الشوارع القديمة، تبدو بيوت القرية متراصة، مبنية من الطين الأسود، والكتل الخرسانية،

تقف جميعها كالوحوش الكاسرة، متلاصقة، فرادي ومتجمعة، تنتصب- أيضاً- في عشوائية سافرة..وعندما سقط الليلُ علي القرية، كانت تتكور علي نفسها، تخبئ ما في جوفها،و السُحب الحُبلي تسبح في السماء، تضرب ظلمة الليل بمعولٍ قاسٍ .. كان الصمتُ قد ضرب علي آذان الأيقاظ والنائمين من أهل القرية، فلا حِسّ ولا حركة، إلا نباح كلب، و ضُغاء طفلٍ رضيع من بعيد، زفيف الرياح تضرب في مسالكها بين البيوت، الشوارع تبدو كثعابين سوداء، القرية تخلو من آثار الحياة، ما عدا أضواء شاحبة بعيدة تتراقص من فتحات البيوت، التي يختبئ داخلها القرويون ، الرياح ما زالت تعوي وتعصف، وسفيف رمال ينفح بشدة، ينشر كل منهما سطوته، كانت الأفكار اللاهثة تتصاعد، تضطرم بداخلي ، أشعر بذهني ينجلي .. ويقلق من جديد، ويتعب، وصلت إلي مجلس بعض رجال، كانوا ملتفين حول « زُكية» نارٍ في الشارع، يطلبون الدفء والسمر، حييتهم ، وسألتهم عن منزل الأستاذ « علي طه»، غرق القوم في صمت أخرس، ولمحت الحزن يخيّم علي سحنة الجميع ، لقد تُوفي صديقي منذ يومين في حادث سيارة، سقط الخبرُ عليَّ بأوجاع وآلام مُبرحة.. وأخذت الدموع تتحادرعلي خدي..ساخنة.. ببطء..كان التعبُ يتسلل إلي جسدي المُنهك..فيشطره نصفين.. و الشهيقُ بداخلي مسموعاً ، حاداً، مُحشرجاً كصفارة نخرها الصدأ..!!..

(٣)

دلفت لشارع ضيق، النساء متشحات بالسواد، تهمهم بأصوات مكتومة، ثم اندفعت في ممر طويل يعج بالناس، يؤدي إلي مقاعد ومناضد كثيرة، فقدَّمت واجب العزاء لعائلة صديقي، ثم توجهت إلي المدافن بمعاونة أحد أقربائه، صدري يحترق بمشاعر متضاربة.. كنتُ وحيداً.. أغرق في اندفاع أهوجَ، اندفعت قدماي كالبرق إلي الداخل، أقترب وأقترب من مشارف المقابر، الواقعة في الناحية القبلية من القرية، النباتات الشيطانية كانت تفرش المدق الترابي الطويل، والبراح الفسيح للمقابر يرقد تحت أشجار الكافور السامقة، وجدران أحواش العائلات تمتلئ بخيالات اللهب، رغم أن المكان يمتلئ رهبة ومهابة، لكن نفسي- الآن - تمتلئ سلاماً غريباً عندما وقفت أمام شاهد قبر صديقي «علي طه» الملاصق لقبر أبيه، نفضت الغبار الناعم عن الشاهد الرخامي، وتركني الدليل بعد إلحاح مني:« لو تسمح، أريد أن أجلس ساعة برفقة صديقي علي» .. عدت ووقفت أمام قبره -تحديداً- تحسست الشاهد الرخامي الذي يحمل اسمه، فارتعشت أناملي واهتزت، ودعوت له بالرحمة والمغفرة، فسمعت صوتاً مألوفاً لدي، يصدر من ذؤابة نور، تكشف من شحوبها كل الحكايات الحزينة، أنفاسه تتقطع في أذني، رنين الكلمات اخترق مسمعي، فأعاده إلي واقعه : «تواصلكم يا صديقي أسعدني وأبهجني» ...نظرت خلفي.. ترددت تلك الكلمات عدة مرات، توجست بداخلي خيفة، كان براح المقابر خلفي فسيحا، وصقيع الليل يحاصرها، وحدي أقف، صمت قليلاً، ولكنني جفّفت دموعي وابتسمت عندما عادت تلك الكلمات تطن في رأسي مرات ومرات: «تواصلكم يا صديقي أسعدني وأبهجني»... وهنا تذكرت أن تلك العبارة هي الأشهر لصديقي عندما كان يرددها معي كل ليلة في نهاية الحديث معه.. وقتها كانت الرياح تعبث مسترسلة بكل ما حولها في إصرار، تُقبّل خدّ الليل، فتمسح وجوه المصابيح، تصالحها علي نهارٍ آتٍ لا يشوبه أي تلكؤ..!!